مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 55 (صيف 2003)، ص 147

كتب بالعربية

البندقية وغصن الزيتون:
جذور العنف في الشرق الأوسط

دايفيد هيرست

ترجمة: عبد الرحمن أياس

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2003. 657 صفحة.

صدر حتى الآن ثلاث طبعات بالإنكليزية من هذا الكتاب. كانت الأولى سنة 1977 بتسعة فصول، والثانية باثني عشر فصلاً. أمّا الطبعة الثالثة التي بين أيدينا الآن ترجمتها، فقد أضاف إليها المؤلف دايفيد هيرست مقدمة مستفيضة بحدود 150 صفحة، يمكن اعتبارها بحق كتاباً متكاملاً.

منذ البداية يضع المؤلف إصبعه على الحقيقة حين يقول: "إن الدولة اليهودية [....] كانت كذلك في أساسها وولادتها ونموها اللاحق مشروعاً استعمارياً. ربما كانت تختلف في نبضها الأول عن تلك الحركة العريضة من الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر الذي تفرعت عنه، لكنها في الوسيلة والنتائج كانت جزءاً منها [....] ولم تقلّ عنها ظلماً أو قساوة في تأثيرها في سكان الأرض التي استعمرتها" (ص 19). هذه الحقيقة التاريخية هي التي أقام عليها كتاب "البندقية وغصن الزيتون" حجته المركزية.

وكأي مشروع استعماري، اعتمدت إسرائيل في وجودها نفسه على دعم راع إمبريالي، بريطانيا العظمى أولاً – كما هو معروف تاريخياً – ثم الولايات المتحدة التي أضحت زعيمة العالم الرأسمالي وأكبر قوة غربية بعد الحرب الكونية الثانية. ولقد أصبحت إسرائيل أقوى بما لا يقارن مما كانت عليه سابقاً، لكنها لم تصبح أقل اعتماداً على راعيها "المتروبوليتاني" من أي وقت مضى، وعلى نفوذه الهائل الذي اكتسبته مباشرة أو بالتنسيق مع أصدقائها في الولايات المتحدة.

يبين المؤلف في مقدمته أن فتح المحفوظات الإسرائيلية في سنة 1978 أتاح فرصاً جديدة كاملة للبحث في قيام الدولة اليهودية. وقد استفادت مجموعة من "المؤرخين الجدد"، كما أصبحوا يعرفون لاحقاً، من هذه المحفوظات لينتجوا رواية كاملة وتعديلية لأحداث 1948. لقد تقصّوا الأصول الاستعمارية المميزة لإسرائيل التي كان المؤرخون التقليديون، المنتمون إلى التيار السائد، قد طمسوها منذ زمن

طويل. وهكذا شكلت أعمال مثل "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، 1947 –1949" لبِني موريس و"تآمر عبر نهر الأردن"لآفيشلايم، و"صناعة الصراع العربي – الإسرائيلي، 1947 –1951" لإيلان بابِه تحدياً لـ "أقدس الحقائق" الصهيونية و"الحقائق العقائدية والخرافية". وبحسب موريس أظهر "التاريخ الجديد" أن إسرائيل كانت مولودة من رحم خطيئة أصلية ولم تكن "نقية وبريئة"، و"أن المجتمع اليهودي لم يتعرض قط لخطر الإبادة عشية حرب العام 1948، وأن الجيوش العربية، لضعف تدريبها وتسليحها، ولعدم كفاءتها العملانية [....] لم تكن تملك في الواقع أي فرصة لتنزل هزيمة بالدولة الوليدة. ولم يفرّ الفلسطينيون بأمر من قادتهم، بل بسبب الإرهاب المتعمد غالباً، والعنف والمجازر المرتكبة بحقهممن قبل الميليشيات اليهودية." (ص 27)

لكن إعادة التقويم الجذرية هذه لخبراء الصراع لم تترك الكثير من النتائج المهمة والعملية. فهي لم تُفضِ إلى أي تغيير واضح في سياسات إسرائيل، أو إلى تقليص الدعم الذي كانت هذه السياسات تناله من الراعي المتروبوليتاني.

يقول المؤلف إن إسرائيل تشكل حالة استعمارية فريدة؛ "فقد اعترف الضحايا المحليون [....] بإسرائيل – الدولة القومية اليهودية – وبحقها في الوجود الدائم. وقد تخلوا علناً عما كان يحق لهم أن يطالبوا به بوصفه حقاً لهم، في ضوء كل من القوانين الدولية والنظم المكرسة المعادية للاستعمار، أي عن استعادة وطنهم المغتصب وعودة اللاجئين وتفكيك جهاز الهجرة والاستيطان" (ص 31)، ولم يفدهم هذا في شيء. كما لم تفدهم "ثورة" فلسطينيي الخارج، سوى أنها لفتت أنظار العالم إلى "وجود" الشعب الفلسطيني ونضاله من أجل حقوقه. لكن بعد النكسات التي واجهها عرفات وتشتت قواته لم يأت الخلاص. وأخيراً عندما شعر فلسطينيو الداخل باليأس انفجروا من دون حث من القيادة في المنفى فيما أصبح يُعرف "بالانتفاضة"، والتي كانت في جوهرها غير مسلحة. وقد أثبتت "انتفاضة الحجارة" فاعلية فيما يتعلق بتأثيرها في المجتمعين الإسرائيلي والدولي. كما تسببت الوحشية التي ميزت رد إسرائيل بضرر بالغ على صعيد سمعتها الدولية.

حاول عرفات أن يستفيد من زخم الانتفاضة ليعرض سنة 1988 "تسوية تاريخية" تقوم على حل على أساس دولتين. وكرس الفلسطينيون نضالهم للتأسيس السلمي لدولة على 22٪ من فلسطين التاريخية تشمل الأراضي المحتلة، وتخلوا عن 78٪ الباقية والتي باتت تشكل "إسرائيل" التي قامت سنة 1948.

وفي جنيف أعلن عرفات "نبذ العنف"، واعترف بحق إسرائيل في الوجود. ومع هذا رأى المؤلف أن العرض كان مقامرة فاشلة بسبب الضعف المستمر لكل من الفلسطينيين

والعرب. ولم يُتَح – في رأيه – لعرفات أن يحظى باحترام يليق برجل دولة وصانع سلام إلاّ بعد "اتفاق أوسلو".

اعتبر المؤلف "اتفاق أوسلو" إنجازاً لأن كلاً من الطرفين اعترف لأول مرة بوجود الآخر، وبحق كل منهما في تقرير المصير بصفتهما شعبين على أرض فلسطين. لكن هذا لم يمنعه من توجيه النقد إلى سلسلة من التنازلات قدمها عرفات، والتي وصفها بأنها أكبر بما لا يقاس من تراجع السادات الذي وصفه عرفات نفسه قبل 16 عاماً باعتباره "كفراً"! لقد قدم الكثير من التراجعات لقاء لا شيء – أو لا شيء مضمون على الأقل! ويفسر المؤلف رضوخ عرفات لتنازلات متراكمة بخضوعه لمنطق "خذ وطالب" الذي فرضه عليه ضعفه. وبالتالي لم ينجح إلاّ في توسيع الفجوة بين ما كان يحققه فعلاً وبين ما كان يؤكد لشعبه أنه سيحققه. واتضح بالتدريج أن الهدف المتواضع بحد ذاته، الذي كان وضعه نصب عينيه، أي إقامة دولة في جزء صغير من فلسطين الأساسية، لم يكن ممكن التحقيق، وأن إسرائيل كانت لا تفعل أكثر من استغلال المفاوضات القاسية والمضنية التي لا تنتهي لتعزز قبضتها على "إسرائيل الكبرى" التي قامت بعد سنة 1967.

الانتفاضة الثانية

بينما كان الفلسطينيون يشاهدون "ما تبقى" من وطنهم يكاد يتلاشى تحت وطأة الاستيطان الشره الذي لم يتوقف، ويستمرون في تحمل الإذلال الناجم عن الاحتلال الذي لم تخف وطأته، كان لا بد ليأسهم من أن ينفجر. وهكذا اندلعت الانتفاضة الثانية في 29 أيلول/سبتمبر 2000. ورأى المؤلف أن الجدال التاريخي لا يزال مستمراً بشأن السؤال عما إذا كان براك هو الذي أطلق الانتفاضة خدمة لأهدافه الخاصة، حين وضع آلاف الجنود ومروحيات أباتشي في تصرف خصمه السياسي المتطرف، شارون، للقيام بزيارته الاستفزازية للمسجد الأقصى، أو عما إذا كان عرفات شجع عليها كوسيلة لتعزيز وضعه السياسي المتهالك. لكنه يجزم أن الانتفاضة كانت ولا ريب آتية. وكانت "في جوهرها ثورة شعبية تلقائية موجهة أولاً إلى الاحتلال الإسرائيلي المستمر، وتعبيراً عن اليأس من أن تتمكن أوسلو من إنهاء هذا الاحتلال [....] كانت في الواقع (حرب استقلال) الفلسطينيين." (ص 41)

بيد أن هذا الرأي الموضوعي لم يمنع المؤلف من انتقاء العمليات الانتحارية التي صاحبت الانتفاضة. فهي في الواقع العملي زعزعت – في رأيه – شرعية النضال الفلسطيني بأسره، بوصفه معادياً للاستعمار. إذ كلما زاد الاشمئزاز من العمليات، في كل من إسرائيل وسائر أنحاء العالم، بات من الأسهل على إسرائيل أن تستخدم استخداماً كاملاً ترسانة العنف المتفوقة بما لا يقاس، والتي تغذيها الولايات المتحدة.

ورأى المؤلف أن الجيش الإسرائيلي كان ينتظر هذه "الانتفاضة" منذ أعوام. وحين اندلعت "أفرغ كل كبته على الفلسطينيين الذين لم يعرفوا ما الذي أصابهم." (ص 43)

لقد كسر الإسرائيليون جميع قواعد اللعبة، على حد تعبيره. أمّا بالنسبة إلى شارون فقد مثّلت الانتفاضة – وما رافقها من عنف – الفرصة التي كان ينتظرها. فـ "هو من الزعماء الإسرائيليين الذين عارضوا كل خطوة من خطوات عملية السلام، من كامب ديفيد الأولى في العام 1978 إلى أوسلو" (ص 45). وكانت "أوسلو" بالنسبة إليه، وإلى كثيرين من المتطرفين العلمانيين والمتدينين الإسرائيليين، "أعظم محنة تحل بإسرائيل على الإطلاق، ونقضاً للصهيونية كما يفهمونها." (ص 45)

ويلخص المؤلف الموقف الحالي لشارون وحكومته من عملية السلام بقوله إن "خطة السلام التي كانت تدور في رأسه [.... هي] النقيض الكامل لأي خطة ولأي سلام [....] وفكرة صنع السلام مع الفلسطينيين فكرة عبثية" (ص 47)، إذ إن الشيء الوحيد الذي يريده شارون هو "تدمير أوسلو"!

يخصص المؤلف جانباً كبيراً من مقدمته لتناول تنامي النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، ويلاحظ أن هذا النفوذ الذي تمارسه إسرائيل مباشرة، أو بواسطة أصدقائها، تزايد بشكل صارخ أكثر من أي وقت مضى. وأصبح كل رئيس جديد أكثر ميلاً إلى إسرائيل من سلفه، في عملية بلغت ذروتها مع جورج بوش الابن. ويفرد صفحات طويلة غنية بالمعلومات ليتحدث بإسهاب وعمق عن الصهيونية المسيحية، وعن النفوذ الصهيوني في معاقل الإدارة، والكونغرس، ووسائل الإعلام، ومراكز الأبحاث.

يفند المؤلف في مقدمته أيضاً، أو لنقل كتابه الجديد الذي أضافه إلى كتابه الأصلي ("البندقية وغصن الزيتون") عدداً من الأساطير عن الاختلاف بين "العمل" و"الليكود"، وعن طبيعة العلاقة بين الفلسطينيين والإدارة الأميركية، ونظرة الأخيرة إلى السلام وإسرائيل وطبيعة احتلالها.

يقول في الاختلاف بين الحزبين الكبيرين ونظرة كل منهما الحقيقية تجاه الفلسطينيين والأراضي المحتلة: "كان السلام الذي عمل من أجله (ليكود) في عهد شارون يسعى للحفاظ على سيادة إسرائيل على (أرض إسرائيل)"، المحددة بفلسطين التاريخيةكلها" (ص 85). أمّا حزب العمل، الأكثر تكتماً دوماً، فكان سلامه، في ظل نشاطه الاستيطاني الواسع، "سيجعل إسرائيل تحتفظ بجزء أساسي من (أرض إسرائيل)"، في الوقت الذي يتحدث عن"السلام". (ص 85)

أمّا عن حقيقة علاقة الأميركيين بقضية فلسطين فإن دايفيد هيرست يبدد وهماً ساد في أوساط معظم الفلسطينيين إذ يقول: "لقد ظن الفلسطينيون أن ماضيهم،

نكبتهم، كان جوهر قضيتهم، وأن استعدادهم لإخراجه من الحسابات المعنوية والسياسية للتسوية النهائية كان يجب، برأيهم، أن يعطيهم مكانة مهمة في أعين الأميركيين. لكن ذلك لم يحصل. فقد أصبحت أوسلو نقطة البداية لحسابات جديدة شكلها الرأي الجامد القديم نفسه تقريباً وشابتها التحيزات القديمة ذاتها تقريباً المؤيدة لإسرائيل." (ص 86)

ورأى المؤلف أن المبادئ لم يكن لها أي دور في "الرعاية" الأميركية للسلام. المساومة وحدها هي التي أدت الدور الأول. ولم تلقِ الولايات المتحدة بثقلها خلف الطرف الأضعف، الطرف الفلسطيني، وإنما عمدت تحت شعار "الإنصاف" و"عدم فرض الحلول" إلى جعل الطرف المتفوق، إسرائيل، يسود، ويتمرد. وكان من المحتم أن يصبح تنازل الفلسطينيين من طرف واحد أساساً لمزيد من التنازل.

كذلك لم تعد الولايات المتحدة تعتبر الأراضي المحتلة "محتلة"، وإنما هي أراض "متنازع في شأنها" فقط، أو هي الأراضي "المسماة محتلة" على حد تعبير رامسفيلد.

يختتم المؤلف هذه المقدمة – الكتاب بتحليل معمق يخلص إلى أن إسرائيل تشكل عبئاً حقيقياً سياسياً واقتصادياً على الولايات المتحدة. ويقول: "إن التكلفة [....] التي ترتبها إسرائيل بوصفها مسؤولية استراتيجية هي تكلفة كبيرة جداً ويمكن أن تصبح كارثية في أي وقت [....] وما من شك، في ما يتعلق بالمئتين والثمانين مليون عربي والأكثر من مليار مسلم، أن سدس سكان العالم (يكرهون) فعلاً الولايات المتحدة وإسرائيل"، وأن الانحياز الدائم من جانب الولايات المتحدة نحو إسرائيل هو "السبب المنفرد الأهم لهذه الكراهية." (ص 136)

ومن الأسباب التي جعلت سياسة الولايات المتحدة تتصف بالصلف والرياء والمعايير المزدوجة تبرز إسرائيل سبباً رئيسياً. فمن أجل إسرائيل نُقضت تكراراً قرارات حظيت بموافقة أقرب حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين. ولم تقم الولايات المتحدة بأي عمل جدي لتجبر إسرائيل على تطبيق قرارات حظيت بموافقتها هي. وتبرز أسلحة الدمار الشامل رمزاً آخر للمعايير المزدوجة الصارخة.

أمّا إسرائيل فلم تقتصر، من جانبها، على امتلاك السلاح النووي، بتغطية أميركية، بل تستخدم هذا السلاح أيضاً وسيلة للابتزاز ضد حليفتها الولايات المتحدة ذاتها؛ بمعنى "إن لم تريدوا أن تساعدونا في ظرف حساس سنفرض عليكم أن تساعدونا، وإلاّ فسنستخدم قنبلتنا النووية" (ص 148). وقد تجلى هذا الابتزاز النووي حين لوحت إسرائيل في حرب 1973 بسيفها النووي. لم تكن تقصد إخافة العرب، وإنما إجبار الولايات المتحدة على المساعدة الفورية بشحنات هائلة من الأسلحة التقليدية! ويقتبس المؤلف هنا كلمة موشيه دايان: "يجب أن تكون إسرائيل ككلب مسعور، أخطر من أن يضايقه أحد." (ص 149)

ويخلص المؤلف إلى القول، بعد هذا البحث الغني: "من دون سلام (عادل وشامل ودائم)، ذلك السلام المطارد من دون جدوى لأكثر من نصف قرن من الدبلوماسية الشرق أوسطية والذي لا يمكن إلاّ للولايات المتحدة أن تحققه، ستبقى إسرائيل مرشحة [....] للعب دور دولة (الجنون النووي)." (ص 148)

إذا كان كتاب دايفيد هيرست "البندقية وغصن الزيتون" كتاباً قيماً جديراً بالقراءة، فإنه بعد الإضافة الأخيرة بات مرجعاً مهماً معاصراً لا غنى عنه لأي باحث جدي، أو لأي قارئ عربي مهتم. إنه يمثل النظرة الأوروبية الأُخرى.. النظرة الجريئة والأمينة للحقيقة في وقت واحد.

هشام الدجاني

كاتب فلسطيني
مقيم بدمشق

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf